الطقس الأول

الرحلة الضوئية

(طقس بصريّ عن وَجد الفنان فان كوخ)

الشخصيّات

فان كوخ

هو (الذات الأخرى للفنان)

المرأة الملاك

البدوية

أربعة من نزلاء المستشفى، ويمثّلون أيضاً كورس النقّاد.

الطقوس

الطقس الأول: قربان القيامة

الطقس الثاني: وهم الحبّ

الطقس الثالث: ملاك وشيطان يتخاصمان على جسدي

الطقس الرابع: الاعتراف

الطقس الخامس: البابان الضوئيان

الباب الأول: زهرة الشعراء وقدّاس النقاد

الباب الثاني: عينا ميدوزا الجميلتان.

الطقس السادس: غابة السديم في مرآة الأسرار

الطقس الأول
قربان القيامة

(يطفى اللون الأبيض على مكان الطقس. أدوات وأوانٍ مختلفة كالتي تُستخدم في مستشفى الأمراض النفسية، شموع لممارسة الطقوس وبانيو لتطهير المصابين بالجنون... أو الوجد. سنابل قمح ذهبية وزهور عبّاد الشمس مرمية على الأرض تحيل المكان إلى ما يشبه أماكن الطقوس. فان كوخ مسجّى ميّتاً داخل حوض الاستحمام. الممثّلون بوجدهم الصوفيّ وهمس تعاويذهم وتمتماتهم الغامضة، كما في السحر، يدعون فان كوخ إلى القيام من موته. «هو» يضع زهور عباد الشمس أمام جسد الفنّان. المرأة الملاك تضع أيضاً سنابل القمح أمامه. في زاوية شبه مظلمة تبدو البدوية مملوءة بالألغاز دائماً، لا تشارك المرضى طقوسهم. يقوم فان كوخ من موته مشعاً ومندهشاً وسط هالة من ظلام المستشفى وكأنه في كابوس جحيميّ يتراءى فيه ظلّ المرأة الملاك والبدوية والمرضى الذين يباركون قيامة الفنّان بطقوسهم. فان كوخ يشعل شمعة في زاوية ما من المكان، ويقرأ على ضوئها رسالة كان قد كتبها في وقت سابق إلى أخيه ثيو).

فان كوخ: ثيو، الأمور لا تسير بشكل حسن، فأنا مضطرب وحزين ولم أعد أعرف أين أنا؟ أين أقف؟ أي أرض أقدّس وجهي بترابها؟ هل تصدّق أنهم سجنوني في قبر الأبدية هذا، فحرموا لوحاتي من النور؟ آه لو ترى الأخيرة منها، لكنها الآن معتقلة خلف الأبواب والحراس. رهيب أن يُحكم عليك بالصمت ولديك الكثير مما تودّ قوله. ثيو الشيء المضحك أنهم يعتبرونني مجنوناً وخطراً عليهم،

أرسم هلوسات سحرية، وانني غير جدير بأن أكون حراً، هل يمكن أن تثق بهم؟ لا أعتقد ذلك، أنت أخي وتعرف نبضي جيّداً.

هو: (ساخراً كعادته في التعامل مع فان كوخ) فما نحن سوى حلقات في هذه الفوضى المجنونة.

فان كوخ: صدقتَ. (مستمراً) ثيو إن معايشتي حياة المجانين والممسوسين في بيت الأشباح هذا ستخلصني من الخوف: الخوف على عقلي من الجنون. (صمت). لكن العديد من زملاء المهنة كان مصيرهم كمصير هؤلاء البائسين.

هو: (ساخراً) لكن حياتي التي أُمضيها هنا موحشة إلى حد كبير لأنهم يمنعونني من عملي، فأصاب بكآبة.

فان كوخ: (متابعاً) والحراس يضايقونني بوضع تاج الجنون هذا على جبهتي ويطهّرونني في هذا الأقيانوس (بسخرية مشيراً إلى الحوض) كما لو أنني مجنون حقيقة (فترة) أمجنون أنا؟

هو: (ساخراً أيضاً) أمجنون أنا؟

فان كوخ: (يخلع التاج وهو عبارة عن حزام من الجلد كاللجام الذي يستخدم للجم حركة الحصان) تاج الجنون، تاج الجنون (يرمي التاج) أنا لست متوحّشاً. (صمت) لكن يجب أن أتكيّف لأنني في طريق مسدود. ماذا أفعل هنا؟ (صمت) ولكن ماذا سأفعل في مكان آخر؟ (صمت) إن الربيع في الخارج يزهو بألوانه وأنا هنا في جحيمي. يجب أن أجد لوحاتي. يجب أن أفتح الأبواب (فجأة إلى الآخرين) افتحوا الأبواب، افتحوا الأبواب، افتحوا الأبواب، اخرجوا إلى الربيع...

(يدور «هو» والمرضى معه في الاتجاهات كافّة. البدوية تراقبهم

بصمت وهي غارقة في طقوسها).

الجميع: (ما زالوا يدورون في المكان) افتحوا الأبواب... افتحوا الأبواب (فترة صمت).

فان كوخ: مهما فعلنا فنحن في الكون؟ من نحن؟ من أنا؟ هل أنا عدم؟ هل أنا مجنون؟ هل أسجن هنا لأن روحي مليئة بالحب؟ وألواني كالموسيقى دائماً، وعواطفي تتّجه نحو الحياة الأبدية. إنه الوجد الذي لا يفهمونه يا ثيو فيعتبرونه جنوناً، نعم إنه الوجد، يبدأ دائماً في نقطة مظلمة في الروح ثم ينتشر حتّى أسرار العقل. إنه وجدي، فيه رأيت ملائكة تائهين في ليل الصحراء، يدلّهم شعاع إلى كوكب بعيد. وعندما اقتربتُ سمعت همساً كجريان مياه الوادي المقدّس.

حملني ملاك الرب،

«وشق لي الصدر بالسيف

واقتلع قلباً خافقاً،

وفي الصدر الفاغر ألقى

بالجمر المتأجّج».

استلقيت في الصحراء جثّة، وصوت أوحى إليّ...

(البدوية ما زالت تتحرك بطقوسية وهي في مكانها)

هو: (صوت كالصدى)

تمرَّد، تمعَّن، أصغِ

وكن إرادتي.

وإذ تجوب البحر والأرض

ألهب قلوب الناس بالحكمة

فان كوخ: الحكمة، الحكمة، الحكمة

المرأة الملاك: الحكمة، الحكمة

فان كوخ: فبدأ برق، رعد، طبول تقرع، ثم لم أعد أرى أي شيء في هذا الكون سوى وميض النور المتوهّج، فتحوّلت ذاكرتي إلى رماد وبصيرتي إلى صحراء ملتهبة وفراغ مخيف. نور، نور، أيها النور طهّرني حتّى لا أسمع طبول الخواء.(ينسحب ليحتميَ في الحوض)

المرأة الملاك: نور، نور

هو: نور، نور

(الجميع يهمسون الكلمة الأخيرة وهم ينسحبون إلى أن يعمّ الصمت)

الطقس الثاني

وهم الحب

(نسمع همسَ فان كوخ وهلوسته في الظلام)

فان كوخ: بعد الآلام والعذاب والعويل.

لا الصمت يوجد

في هذا القبر،

ولا الوحدة أيضاً.

آه لو كان ثمة حلم

أو نار أو نبع ماء.

هو: (هامساً وساخراً)

وحده في قبره الأبدي،

أحيطوه بلهيب النار المقدّسة

فيبزغ في السماء

ملاك كظلّ الحب، كظلّ الحب، كظلّ الحب.

(فان كوخ يحاور المرأة الملاك متخيّلاً أنها حبيبته القديمة سين. في هذا المشهد تبدأ لعبة الوهم والواقع واختلاط الماضي بالحاضر وتبادل الأدوار ما يُضطرُّ المرأة الملاك إلى تمثيل دور حبيبة الفنان بالرغم من تردّدها وعدم قناعتها وخوفها في البداية. يجب أن يكون التحوّل، من شخصية الحبيبة في الماضي إلى شخصية المرأة الملاك في الحاضر، وبالعكس، واضحاً).

فان كوخ: (مستذكراً الماضي، إلى المرأة الملاك التي يعتبرها حبيبته القديمة

سين) سين، لمَ أنت قلقة؟

هو: (يعوي سخريةً) عو عو عو عو...

المرأة الملاك - سين: (إلى هو) اششش. (تضحك في سرّها، ثم تُجاري كوخ فتمثّل دور الحبيبة) كل هذا يبدو كالكابوس، إنهم لا يؤمنون بفنّك.

فان كوخ: لا يهمّني، أنتِ من يجب أن تؤمني بي.

المرأة الملاك - سين: أؤمن بك، لكن ما ترسمه لا يُدرّ مالاً. كيف سنعيش؟

فان كوخ: كما كنّا، أعتني بك وبطفلك، ومن أجلكما سأبيع ما أرسمه بأبخس الأثمان.

المرأة الملاك - سين: يرفضونها، كيف سنعيش؟

فان كوخ: (مرتبكاً ومتردّداً) كما عشنا سابقاً.

المرأة الملاك - سين: ومن أين سنأكل؟

فان كوخ: سأرسمكما بدمي حتّى أدخلكما حقول النور.

هو: (ساخراً) حقول النور؟! بدأتَ تحلم مرّة أخرى.

المرأة الملاك - سين: (ساخرة) لكن كيف سنعيش؟

فان كوخ: بهدوء في مرسم تمتدّ جذوره في قلب الحياة، مرسم وألوان وإبداع متواصل ولا مجال للركود، لا مجال للكآبة، لا مجال لليأس لأني أحبّك أنت والطفل.

المرأة الملاك - سين: أي حب أمام هذا الكابوس الفظيع من الإهانة والجوع؟

فان كوخ: إنه حبّي وحلمي.

المرأة الملاك - سين: نعم إنه حلمك الذي أعيش فيه كفأرة محاصرة باحتقار الآخرين.

فان كوخ: لنتزوّج إذاً.

المرأة الملاك - سين: كيف؟! وأنت تعيش عالةً على أخيك ثيو، بالتأكيد سنموت جوعاً. ثم إن والدك وجميع العائلة لن يوافقوا على الزواج منّي لأنهم يعتبرونني مومساً. أنت تعبث بي وبطفلي وبنفسك أيضاً. (صمت) أنا الآن مضطرة إلى أن أعيش معه من بيع جسدي من جديد.

هو: (ساخراً يضحك مع المرأة الملاك) هل تظنّ رسوماتك فنّاً.

المرأة الملاك: إشش يظنّ أنني حبيبته، (إلى فان كوخ) من دون هذا كيف سنعيش؟

فان كوخ: (بهدوء) هل تريدين حقاً العودة إلى حياتك السابقة، إلى الشارع؟

المرأة الملاك - سين: نعم، لأن الجميع لن يبارك زواجنا.

فان كوخ: المهم أن نبارك نحن أحدنا الآخر.

المرأة الملاك - سين: وكيف سأرضع طفلي، كيف؟ انظر، ألا تراني كشجرة يابسة؟ (تضرب على صدرها بعنف وتمزّق ثوبها) انظر هل يمكن لهذا الصدر أن يمنح الحياة لطفل؟ كيف سأرضعه، كيف؟

هو: (ساخراً) يبدو أن بيع الجسد في زماننا هذا أكثر ربحاً من بيع لوحة فنية. (عواؤه يأتي من بعيد) عو، عو، عو...

فان كوخ: (مرعوباً) ما هذا؟!

المرأة الملاك - سين: (إلى هو) إششش... (إلى فان كوخ) اهدأ، اهدأ.

هو: (يعوي) عو، عو، عو...

المرأة الملاك - سين: اصمت، إششش.

فان كوخ: من أين يأتي هذا الصوت؟

المرأة الملاك - سين: إنها الريح وثرثرات الجيران تأتي من تحت الباب.

فان كوخ: يجب أن نرحل من هنا إذاً، هل نرحل سويّة؟

المرأة الملاك - سين: لن أرحل.

فان كوخ: لنبتعد عن هؤلاء حتّى لا نسمع هذا الضجيج، لنرحل.

المرأة الملاك - سين: لن أرحل.

فان كوخ: أرجوك أنا بحاجة إليك، لنرحل من هنا كصديقَين وحبيبَين مخلصَين.

المرأة الملاك - سين: لا أستطيع، لقد ولدت هنا في هولندا وسأموت هنا.

فان كوخ: أستحلفك أن ترحلي معي إلى باريس.

المرأة الملاك - سين: (صمت).

فان كوخ: (بعد فترة) إذاً سأرحل وحدي.

المرأة الملاك - سين: ارحل (ضحكة مخنوقة).

فان كوخ: حتّى أنت ترفضين صحبتي؟ ظننت أن حبّي يعني لك شيئاً، (فترة) يا إلهي الآن أرى كل شيء بوضوح. الآن وحدتي هي قدري من جديد.

المرأة الملاك - سين: اهدأ، اهدأ لا تغضب، أنت في محرابك، أما أنا فليس لي مكان فيه.

فان كوخ: (لنفسه) لقد استعدت توازني معها، وأردت أن أنجز فناً كوخز الشرايين بالإبر، أردت أن أكتشف معها عمق البحر والغابة والحقول الذهبية.

هو: عو، عو، عو...

المرأة الملاك - سين: (إلى هو) إشش... (وإلى فان كوخ) اهدأ، لا تغضب، تعال (تحتضنه).

فان كوخ: ارحلي معي.

المرأة الملاك - سين: اهدأ.

فان كوخ: أرجوك ارحلي معي.

المرأة الملاك - سين: اهدأ، اهدأ.

فان كوخ: (يمسكها بعنف) لنسافر سوية، هنالك أستطيع أن...

المرأة الملاك: (تخلّص نفسها) لن أرحل (تعود إلى شخصية المرأة الملاك) لأنني لست حبيبتك، أنا هنا في المستشفى مثلك، اتركني وإلا سأنادي الحراس (إلى الآخرين) يظنّني حبيبته، هل كانت سين تحبّه أم تستغلّه؟ (الى كوخ) مؤكّد أنها كانت تحبّك بالرغم من أنكما عشتما في زقاق الفئران.

هو: زقاق الفئران؟ عو، عو، عو...

المرأة الملاك: إشش... إشش.

فان كوخ: (مذهولاً) زقاق الفئران!!

المرأة الملاك - سين: (تعود إلى شخصية الحبيبة) يا حبيبي أنت روح قلقة، هائمة، إن حياتك لن تتحمّلنا نحن الاثنان، ارحل، ارحل لوحدك، سأتذكّرك دائماً، لأنك الوحيد الذي عطف عليّ وانتشلني من الشارع. والآن يجب أن أبحث عن قوتي، معدتي خاوية وطفلي جائع، عليّ أن أذهب، ليس لديّ وقت، يجب أن أذهب، وداعاً (تبتعد).

هو: وداعاً.

فان كوخ: واأسفاه.

المرأة الملاك - سين: كانت أجمل الأيام.

هو: أجمل الأيام.

المرأة الملاك - سين: أجمل الأيام.

هو: أجمل الأيام.

المرأة الملاك - سين: (كالصدى) الأيام. الأيام. الأيام.

هو: (يقلّدها) الأيام. الأيام.

فان كوخ: (متمتماً) أردت أن أجعل منها قدّيسة، لكنها فضّلت أن تكون كنجمة انطفأت في سماء مظلمة (يعدّ النجوم) نجمة، نجمتان، ثلاث نجوم، أربع، خمس، ست، سبع... نجوم، نجوم، نجوم كالمرايا في البحر، كالمرايا في البحر، كالمرايا في البحر.

هو: (يعوي كذئب مجروح) عو، عو، عو.

(تُضاء خلفية المسرح بإنارة ساطعة، نرى فيها البدوية واقفة في هالة الضوء، والمرأة الملاك تنجذب نحوها باستسلام)

الطقس الثالث
ملاك وشيطان يتخاصمان على جسدي

(صوت الريح في الظلام لفترة وجيزة. «هو» يدور حول نفسه وفان كوخ في دائرة النور الذي ينهمر على جسده العاري كشلّال، إنه يستحمّ بالنور وكأنه يتطهّر به. البدوية تقف في هالة الضوء أيضاً مغطيةً وجهها بحجابها، فلا يُرى منه سوى عينَيها، حيث ارتدت ملابس نساء الصحراء السوداء. المرأة الملاك مرتبكة وخائفة تتجه نحوها وكأن ثمة قوّة ما تسحبها إلى الأمام. يبدأ رقص عنيف بين المرأتَين يدلّل على الصراع بينهما؛ وهو صراع مصيريّ. الرقص يوحي بانتصار المرأة الملاك مرّة والبدوية مرّة أخرى، وفي النهاية تُنهَك المرأةُ الملاك وتنجذب نحو البدوية خاضعةً لها باستسلام قدريّ. البدوية تمسك المرأة الملاك وتفقأ عينَيها لتصبح عمياء حتّى النهاية، فيحدث نوع من الخضوع يوحي بأنه أبديّ. البدوية تشعر بالانتصار، فتبدو وكأنها الصقر، تبدأ البحث بحركة وحشية عن فان كوخ، المرأة الملاك في حالة من الاستسلام. يشعر فان كوخ بالرعب ويهرب منها في الظلام. يعمّ الصمت بدل الموسيقى، وعندما نسمع فان كوخ يجلد جسده بوحشية في ظلام زاوية من المسرح، يتغيّر المشهد)

الطقس الرابع
طقس الاعتراف

(فان كوخ شبه عارٍ يجلد جسده بعنف)

فان كوخ: بينما القدر يقترب
والساعات لا تكاد تتنفّس،
تتحوّل رمال الزمان
إلى ذرّات من ذهب،
تشتعل لهيباً،
يحرق روحي
نور، نور أيها النور كن دليلي.

المرأة الملاك: أيها النور كن دليلنا.

فان كوخ: (وهو ما يزال يؤنّب نفسه) إني خجل من هذه الحياة حيث يُستلب فيها الفنان، خجل من هذا الزمان، خجل لأنهم سجنوني ومنعوا أي اتصال بي، إني لخجل. (فترة صمت) لكن المهم ألا نجهل هذا كلّه. أليس لنا الحق في أن نحلم بعالم آخر لا ندفع فيه ثمناً قاسياً؟

المرأة الملاك: نور، نور، أيها النور كن دليلنا.

هو: (ما زال يتعامل مع الفنان بعُنف وسخرية) لماذا تتشكّى دائماً، ماذا تريد؟

فان كوخ: (كأنه يعترف) ألا تفهم؟ أريد لألواني أن تواسي الناس كالموسيقى. أريد أن أفجّر الألوان بالموسيقى التي تشبه أمواج البحر الصاخبة. أريد أن أرسم اللانهاية كنجمة زرقاء غامضة

في روح الإنسان. أنني بحاجة إلى النور لأن الظلام يمنع بزوغ الروح، لا بدّ من أن أرى شموساً أخرى، لا بدّ. فبنقاء الروح يصل الإنسان إلى المطلق و...

هو: (ساخراً) أريد... أريد... ماذا جرى لك؟ قل ماذا تريد؟

فان كوخ: أريد أن أحوّل اللون الأصفر إلى نور، أن أصوّر البشر لأدعَ فيهم شيئاً من الأبدية. فالحياة قصيرة كالدخان.

هو: (مقاطعاً) دائماً مضطرب ومرتبك. لا تثرثر هكذا. قل بوضوح ماذا تريد.

فان كوخ: أن تُضيء ألواني روح الإنسان.

هو: هذه أفكار مجانين. وأنت أضعت حياتك في البحث عنها كمن كان يبحث عن سراب. قل بكلمة واحدة ماذا تريد؟

فان كوخ: أريد الحقيقة.

المرأة الملاك: (تشهق) حظ عاثر، لن تتحمّل هذا العذاب كلّه.

فان كوخ: لماذا؟

المرأة الملاك: كي تحوّل اللون إلى نور لا بدّ لجسدك وروحك من أن يتطهّرا، أنت لن تتحمّل هذا العذاب كلّه.

فان كوخ: ليس عذاباً، إنه معنى لحياتي.

هو: إذاً عليك أن تتحمّل نتائج رحلتك، هل تريد من يساعدك؟

فان كوخ: نعم.

هو: (يهمس له مشيراً إلى البدوية) اذهب واركع أمام سيّدة الأسرار، هي فقط القادرة على رؤية المجهول الذي يُفني الإنسان حياته في الصراع الأبدي معه، من دونه ليس ثمة معنى للحياة. اعترف الآن في حضرتها وتشفّع لديها لتساعدك في تحقيق ما تريد. ستنبئك

سيّدة الأسرار بهذا. (فترة) داتا، دايا، داميانا.

(يبدأ طقس التطهير الخاص الذي يمكن أن يركّز عليه المخرج بطريقة قريبة من الطقوسية، ومن ضمنها نرى «هو» وهو يقوم بتعرية فان كوخ لتهيئته للرحلة، مدلّكاً جسده كلّه بالطين أمام البدوية)

هو: إنك لا ترى الآن سوى الفراغ في هذا الكون. ليبتعد قلبك وفكرك عن الأوهام، فمن أجل أن ترى الجمال لا بدّ من أن ترى القبح. وكي ترى شموساً أخرى لا بدّ من أن ترى ما في الظلام وتسمع الصمت. ولا يمكنك أن تعرف الخير ما لم ترَ الخطايا والشرور.

المرأة الملاك: ومن أجل أن تمتلك الحكمة لا بدّ من أن تبحث عنها وتتعذّب.

(تبدأ البدوية طقوسها وتعاويذها لرؤية المستقبل، تلطم جسدها كلّه بإيقاع بطيء يكون فيه للصمت حضور، ثم يتسارع هذا اللطم، إنه تعذيب الجسد من أجل استجلاء الروح والنبوءة، فيبدأ الجميع بتوهان الوجد الطقوسي والإيحاء بعملية الطّلق لمساعدة البدوية في ولادة النبوءة؛ لمساعدة فان كوخ في رحلته. يجب أن يأخذ هذا الطقس التنبّؤي وقته الطبيعي الكافي لفهم معناه. يقوم الجميع و«هو» بطقوس تتخلّلها أصوات وفحيح وحشرجات، والمرأة الملاك تقوم بتأوّهاتها ووجدها ورقصها ونواحها الجسدي الصوفي، فتتصاعد أصوات الآخرين وآهاتهم وحركات لطمهم إلى الذروة، ومن ثم يهدأ كل شيء فجأة، صمت طويل في انتظار النبوءة)

المرأة الملاك: سترافقك سيّدة الأسرار لتساعدك على عبور باب الحياة وباب الموت اللذين ستكتشف من خلالهما أسراراً من الصعب معرفتها،

وسترى رؤى غريبة. وعندما تعود ستكون ملكها وتتبعها إلى مملكتها في الصحراء التي تستعر جحيماً... ستأخذك إلى هناك عند سقوط القمر في البحر. تذكَّر هذا العهد. (البدوية سترافق فان كوخ في رحلته؛ تراقبه وأحياناً تشترك في بعض المشاهد)

هو: هل أنت مستعدّ؟

فان كوخ: نعم...

المرأة الملاك: حظ بائس.

هو: انهض وارحل إذاً (صمت، ثم يستمرّ بالتعويذة)... داتا، دايا، دامیانا.

المرأة الملاك: (تمنحه شارات الرحلة) خذ هذه شارات رحلتك الضوئية، يجب أن تتسلّح بها. هذا هلال الحكمة، وهذه تعويذة الرؤيا، وهذه كفّ سيّدة النور. احذر أن تفقدها. بها ستجتاز العتبتّين وعند كل عتبة سترى رؤيا توسّع خيالك وفكرك. هناك ستلتقي حارسة النار المقدّسة التي يخافها البشر جميعاً. لا تخف أنت. وعندما تعود من رحلتك عليك أن تفي بوعدك. تذكَّر ليلة سقوط القمر في أعماق البحر ستكون في حضرة سيّدة الأسرار، ستكون ملكها، تابعها، تفعل بك ما تشاء.

هو: هيّا انهض واعبر البحر المقدّس إلى النار المقدّسة، إلى المجهول. اعبر دكّة الأسرار الأولى.

فان كوخ: (لنفسه) هل حُكم عليَّ الآن بالتشرّد إلى الأبد؟

هو: (فان كوخ يتبع البدوية مأخوذاً) داتا دايا، أعبر فنسنت فان كوخ. اعبر سلالم النور. داتا دايا دامیانا.

(فان كوخ والبدوية يسيران مأخوذَين في الفضاء الخالي الذي

لا نسمع فيه سوى همس الآخرين بكلمات غير مفهومة والحوار المتوتّر التالي، من الممكن استخدام الفيلم كخلفية توحي بالرحلة الضوئية)

المرأة الملاك: احذر أيها البشر الفاني، احذر رحلتك الضوئية.

هو: اعبر سلالم الرؤيا ونورها.

المرأة الملاك: احذر أيها الفنان من نور المستحيل.

هو: (يتصاعد إيقاع الحوار والحركة) اعبر سلالم الأسرار، فكل إنسان يحارب الفناء في داخله.

المرأة الملاك: احذر أيها الفاني كي لا تسقط في الظلمات النتنة.

هو: داتا دايا داميانا... اعبر أوقيانوس النور.

المرأة الملاك: احذر كي لا تندم.

هو: اعبر نحو المجهول... اعبر.

المرأة الملاك: يا إله البشر، أنقذ هذا الإنسان الجموح.

هو: داتا دايا داميانا... اعبر السلالم الضوئية أيها السيّد فان كوخ وتطهَّر بالنور.

فان كوخ: (هاذياً) الأزرق ملتوٍ. الأخضر منساب. الأصفر نار. الأبيض ملتاث. واللؤلؤ مستباح في البحر، في الصحراء، النار، الجحيم، الفضاء، الفجر. جحيم. جحيم. جحيم ليل. جحيم الروح، جحيم اللون، لون، لون، أحمر، أسود، أصفر، أخضر، نور، طبل، رقص، نور، جنون، عشب، ليل، حب، رقص، حلم، حزن، ظلّ، ضوء، طفل الليل، نور، يأس، ثيو، ثيو، رقص، رقص، رقص.
(يستمرّ بالهذيان، ويمارس الجميع الهذيان الجسدي أيضاً، وكأنه ضرب ولطم لمعاقبة الجسد)

هو: داتا دايا داميانا، داتا داتا داتا.

(الجميع يهذي ويهمس بصوت مختنق، وأجسادهم تتلوّى)

المرأة الملاك: (تصرخ بشكل متواصل ومخيف) يا رب العباد أنقذنا.

الجميع: أنقذنا يا ربّ.

(موسيقى تتبؤنا بالرحلة نحو المجهول)

الطقس الخامس
طقس البابَين الضوئيَّين

الباب الأول: زهرة الشعراء وقدّاس النقّاد

(نزلاء مستشفى المجانين بملابسهم التي تميّزهم وحقائب السفر وكأنهم على سفر وشيك في الخيال. في البداية نراهم جالسين بجمود ملحوظ على شكل دائرة يحتضنون حقائبهم وبعضهم يجلس عليها، واحد أو أكثر داخل حقيبته. الجميع ينظرون طويلاً وبتركيز كبير نحو الجمهور. وعندما يدخل فان كوخ متوجّساً هذا المكان الجديد، يتحرّكون بهدوء ويدورون مشكّلين دائرةً كما في السجن، ونرى معهم أيضاً البدوية و«هو» والمرأة الملاك. حركاتهم مشتركة وآلية أحياناً، لكنها بطيئة بالرغم من أنهم يتمتمون بهمس غير مفهوم، من الممكن أن يكون آيات دينية. مكوّنات السينوغرافيا تتميّز بالأبيض، وكأنهم في عالم غير عالمنا. النزلاء لا يتكلّمون في ما بينهم مباشرة، وإنما كلّ منهم يهمس مع نفسه، وكلّ له عالمه الخاص. وعندما يتكلّمون على فان كوخ فإنهم يتكلّمون عنه وكأنه غير موجود).

هو: هنا الطريق إلى غابة العذاب الأبدي
هنا الطريق إلى عالم الأسرار والمجهول.

النزيل الأول: (مرعوباً) مَن هذا الذي يطرق أبواب مملكتنا بلا خوف؟

النزيل الثاني: (همساً) إنه الفنان المجنون الذي قطع أذنه وأهداها إلى مومس.

هو: ماذا يريد؟

النزيل الثالث: لا أعرف لكنه مجنون حقاً. كيف يجرؤ أن تطأ قدماه هذا

المكان؟

النزيل الرابع: خُدع، (ضاحكاً) لم يخرج من هذا المكان كلّ من دخله، ليعد إلى عالمه الذي جاء منه.

النزيل الأول: (دون أن يلتفت إليه) ليبتعد عنّا، ليرجع في طريقه المجنون.

النزيل الثاني: ليبتعد عنّا. (بإيقاع متصاعد وعنيف ومتداخل الأصوات ومن دون صراخ).

النزيل الثالث: مجنون، ليبتعد عنّا.

النزيل الرابع: ليبتعد عنّا.

المرأة الملاك: ليبتعد عنّا.

البدوية: ليبتعد عنّا.

النزيل الثالث: مجنون.

النزيل الأول: مجنون.

النزيل الرابع: ليبتعد عنّا إنه طاعون.

النزيل الثاني: ليبتعد عنا سيلوّثنا.

هو: لا نريده، فليبتعد عنّا، فنان مصاب بالجرب.

المرأة الملاك: بشر يسعى ضدّ قَدَره، كل طموحه أن يرى المستحيل.

البدوية: مخضّب بالدم من رأسه إلى قدمَيه.

النزيل الثاني: (إلى كوخ) انظر إليّ «فترة» اللعنة، إنه شبيهنا.

هو: (هامساً إلى كوخ) إذا أردتَ النجاة من هذا المكان الموحش، عليك أن تسلك طريقاً غيره، فما زال لديك متّسع من الوقت.

فان كوخ: (إلى قرينه «هو») لماذا أنتم هنا؟

النزيل الثاني: إشش، لا تسأل.

النزيل الرابع: هل تعتقد بأنه يمكن العيش في مكان آخر، لا يمكن.

فان كوخ: ماذا فعلتم كي تتعذّبوا هكذا؟

النزيل الثالث: لا شيء كانت الحياة لي سراباً.

النزيل الأول: وكان وجود الآخرين بالذات يزعجني.

النزيل الرابع: عانيت كثيراً وكنت مجنوناً منذ البدء لأنني تحمّلتهم طوال الوقت، صمتُّ ولم أرفضهم، لقد ذبحوني أولئك المزيّفون.

النزيل الأول: (يهجم على فان كوخ) لماذا تلاحقني؟ لا تتبعني. لم أقتله. لا تستغفلني. أعرف مَن تكون. ليس لك الحقّ في أن تلاحقني، لأنني لم أقتله. هو الذي انتحر يوم الأربعاء، نعم الأربعاء. اغرُبْ عنّي واتركني وحدي. (ينهار على الأرض في نوبة صرع متشنّجاً بلا ضجيج، وجسده يظلّ يدور حول مركزه) أعرف أنهم لن يكفّوا عن مطاردتي. سأعترف، فقط ليبتعدوا عني. (صمت، ثم ينفجر بصراخ طويل) نعم لقد قتلته، قتلته من أجل نقوده، كان يخبّئ مالاً كثيراً، وهو الآن معي وقد خبّأته، سأُريك إيّاه. وإذا رغبت سأعطيه لك، لكن بشرط أن يكفّوا عن ملاحقتي. أعرف كيف أنال حرّيتي حتى لو كنتُ القاتل، لأنني أعرف جميع ثغرات القوانين وسأتلو عليك، النصوص القانونية التي تسند دعواي، لأنني درست المحاماة وعلم القضاء والعدالة وأعرف بأن القوانين مثقوبة وهي سبب المآسي جميعها. قل لهم أن يتركوني وسأكون بخير، سأكون بخير، القوانين مثقوبة، القوانين مثقوبة، مثقوبة... (يتلو نصوصاً قانونية عن القتل والجريمة، يتمتم بها، لكننا لا نفهمها حتّى يتلاشى صوته، يجمد ساهماً وكأنه تجمّد).

هو: (إلى فان كوخ همساً) أتعب دماغه بدراسة القانون، كان لا

ينام، فقط يقرأ... ويقرأ القوانين صباح مساء، ولا أعلم لمَ كانوا يطاردونه.

النزيل الأول: (يهمس إلى «هو» قاصداً فان كوخ) قل لشبيهك هذا المجنون أن يعود من الطريق المجهول الذي جاء منه، قل له أن يبتعد عنّا.

النزيل الثاني: (هامساً) ليبتعد... ابتعد.

النزيل الثالث: ليبتعد... ابتعد.

النزيل الرابع: ابتعد.

(الثاني يبدأ بعواء ذئب ويستمرّ بأقصى طاقته؛ يجب أن يُعطى هذا الفعل وقته الكافي، ثم صمت ثقيل)

هو: هنا الطريق إلى العذاب الأبدي، هنا الطريق إلى عالم الأسرار والمجهول.

(تُعرض على الشاشة لوحة فان كوخ «آكلو البطاطا». يفرش فان كوخ شرشفاً أبيضَ على الأرض، ويرسم بيدَيه عليه؛ بالطين الذي على جسده من المشهد السابق. النزلاء يتكوّمون حوله ولا يفهمون ما يفعله. البدوية والمرأة الملاك و«هو» يضعون في رقابهم أحذية قديمة ويتحوّلون إلى نقّاد من أجل السخرية من الفنان، يساندهم النزلاء، يمسك بعضهم بخيط دميته البالونية الهوائية التي يلعب بها في الفضاء. المرأة الملاك العمياء الآن تجلب كرسيَّ المقعدين وكأنه العرش لتجلس البدوية عليه كرئيسة النقّاد. ومنذ الآن يشوب المشهد شيء من السخرية والتهريج تمارسه هذه الشخصيات بسذاجة. يدور النزلاء ساخرين ومندهشين حول الفنان وهو يرسم.

يشتركون بحركات موحّدة في ما بينهم وكأنهم دمى تهريجية)

البدوية (رئيسة النقّاد): دائماً يختار الألوان القاتمة والقذرة.

النزيل الأول: لماذا؟

هو: لا أحد يعلم كيف يفكّر.

المرأة الملاك (الناقدة الثانية): تبدو وكأنها ألوان طينية.

النزيل الثالث: مُقرفة.

هو (الناقد الأول): مُقرفة... وخراء.

النزيل الثاني: هل جنّ من الرسم، أم أن جنونه دفعه إلى أن يرسم؟

البدوية (رئيسة النقّاد): يقول إنه يريد التعبير عن روح العصر، ها ها ها.

المرأة الملاك (الناقدة الثانية): لا يرى جمال الحياة بل يرى قبحها فقط.

البدوية (رئيسة النقّاد): يرسم أحذيته القديمة كلوحات على الناس أن يعلّقوها في غرف نومهم. وإذا رفضوا لعن العصر الذي يعيش فيه. وعندما نكتب عنها وننصحه، يشتمنا في سرّه، أمعقول هذا؟

هو (الناقد الأول): نعم معقول. ولا أعرف هل هذا بسبب جنونه، أم بسبب خياله الواسع؟

(يبدأ النزلاء بوضع الأحذية بأشكال مختلفة وتعليقها واللعب معها سخريةً من الفنان، فيتحوّل المشهد إلى تهريج، وجميع الشخصيات إلى دمى تتحرّك بإيقاع خاص

ومن ثم يجمدون. النزيل الثاني مستمرّ في العواء بأقصى طاقته).

فان كوخ: تأمّلي فيهم يا روحي. إنهم فظيعون حقاً أشبه بتماثيل الأزياء.
عن أي شيء يبحث
هؤلاء العميان؟

البدوية (رئيسة النقّاد): بدأ يشتمنا.

هو (الناقد الأول): رجل انفعاليّ قادر على القيام بأفعال خطرة.

المرأة الملاك (الناقدة الثانية): يرى البؤس في الوجود دائماً.

هو (الناقد الأول): ويرانا مجانين ومهرّجين أغبياء في سيرك كبير. (صمت) لقد صار الجنون هو العقل. (عن لوحة «آكلو البطاطا») انظر إلى هذه اللوحة، لا يمكن للإنسان أن يتحمّل ألوانها القاتمة والكئيبة.

فان كوخ: (إلى «هو») كلما ازداد وجدي اتّسعت رؤيتي، فانبعث الإبداع كشلال من النور، وتكوّنت اللوحة جمالاً خالصاً. (عن لوحة «آكلو البطاطا») أردت لهذه اللوحة أن تكون دعوة إلى التفكير في حياة حقيقية مختلفة عن الحياة المزيّفة، إنها ستتوهّج في المستقبل كتوهّج حقول القمح الذهبية (صمت). يا إلهي لمَ الإنسان بائس إلى هذا الحدّ؟ لمَ هو عاجز عن القيام بفعل ما.

هو (الناقد الأول): أنت أكثر عجزاً من الآخرين، ما الذي فعلته في حياتك؟ بلا وعي قطعت أذنك وأهديتها إلى مومس الماخور حتى تحتج وتسخر من نفسك ومجتمعك ومنا جميعاً، حاولتَ الوصول إلى عمق الجمال، جرَّبتَ إعادة إبداع الحياة من جديد، تجرأت بالمطالبة على تنظيم الفوضى الكونية، لكنك لم تستطع حتى تنظيم فوضى روحك. (بهستيريا) لكن عن أي فوضى تتحدّث؟ كل شيء منظّم في هذا الكون. أنت فاشل أيها الفنان، فاشل في كل شيء. لم تبع سوى لوحة واحدة في حياتك، ولا بد من أن يكون أخوك ثيو هو الذي اشتراها، فهو تاجر لوحات. وحتى بورتريه الدكتور فيلكس ري الذي رسمته وأهديته له، أخذه منك ليضحك عليك ويستخدمه في غلق ثقب ببيت الدجاج الذي كان يملكه، إن لوحاتك تحمي الدجاج من البرد أيها السيد فنسنت فان كوخ. (يستمرّ في الضحك) أنت فنان فاشل ومخضّب بالدم من رأسك إلى قدمَيك، يا ليتني لم أعرفك.

(تبدأ عاصفة الأجساد من جديد، ويدور الجميع في أنحاء المسرح بحركة بطيئة جداً أثناء الحوار الآتي)

البدوية (رئيسة النقّاد): (تضع قناعاً ولحية رجل)

في ساعة الشفق

رغم العمى، أخفق بين حياتَين،
لكني قادرة على أن أرى.
في ساعة الشفق، ساعة المساء
التي تُعيد الملاّح إلى أهله من البحر.
أنا العجوز أرى ما لا يُرى،
أقدر أن أراك الآن رغم العمى
وأتنبّأ بك كبشر ملعون،
شبيه المنتحرين في الحياة
أولئك الذين تلهث للانضمام إليهم.
وبالرغم من كل الظلام والعمى
أقدر أن أراك بين الموت والحياة.
وفي لحظة غضب هناك قرب شجرة السرو الوحيدة
ستُنهي حياتك في يوم قائظ.
ستُطلق الرصاصة المنتظرة
أو ستُذبح من الوريد إلى الوريد.
وستشهد غربان الحقل زهرة روحك الدامية.
ستغذّي دمك زهور عبّاد الشمس
وحقول القمح،
فتتوهّج سنابل النار.
ستفرّ الغربان التي رسمتها في لوحتك الأخيرة،
وسيكون الدرب الطويل الذي رسمته بلا نهاية... قبرك
وستهيم أنت في سموات المجهول.
الآن وقد جرى ما جرى، يسرّني أنه انتهى، حانت لحظة

الطيران.

سنطير من جديد.

سنطير... سنطير.

وداعاً... وداعاً.

النقّاد: سنطير... وداعاً... وداعاً.

(بعضهم يمسك الدمى كبالونات ويتهيّأ للطيران، لكنه يجمد مبتهجاً كما في صورة فوتوغرافية)

فان كوخ: هؤلاء هم الموتى الأحياء، أصحاب الدماء الباردة والضحك الغليظ

لقد سرقوني، سرقوا زمني.

وهأنذا أسمع طبول الخواء في هذه الفوضى وأشمّ رائحة نتنة.

موسيقى

الباب الثاني
عينا ميدوزا الجميلتان

(تنبثق البدوية من الظلام من دون نقاب وبشعر وحشيّ، مهيبة وصامتة. تغوي «هو» بجمالها وغموضها وسرّها. يدوران حول بعضهما. بقية الممثّلون جامدون وشبه عراة وبأوضاع مختلفة، يبدون وكأنهم أشباح حجرية. المرأة الملاك وفان كوخ يراقبان ما يجري)

المرأة الملاك: (هامسةً إلى فان كوخ) انظر إليهم لقد خدعتهم بجمالها، فتحوّلوا إلى حجر بلا روح عندما لمسوها ونظروا في عينَيها. في النهار حرارة الشمس تشويهم، أما في الليل فأجسادهم تمتصّ حرارة الحجر. إن عذابهم أبديّ.

(هذا المشهد يعتمد على روح الصمت وتأويلات حركة الجسد ودلالة الرمز الداخلي للتعبير عن الفكرة الأساسية التي هي إغراء الزيف والجمال الخادع وقوّته في التأثير على الإنسان، ولا يتمّ هذا من خلال التعبير عن قوّة الجسد، وإنما من خلال العلاقة السرّية غير المرئية التي تفرضها قوّة الرمز الذي تمثّله الشخصية وتأويل حركتها، فالصراع بين هذين القطبَين أو الرمزَين هو الذي يجب أن يؤكّد ويأخذ حجمه وإيقاعه الطبيعيَّين في الفضاء وفي ذهن المشاهد. إنه بين شبيه فان كوخ الإنسان، أي الذات الأخرى للفنان «هو»، والبدوية كرمز للغموض والسرّ والجمال الزائف أو الموت أو المرض الذي يخرّب روح الإنسان ويشوّهها. لذلك يجب إعطاء الحركة المعبّرة المتقنة

إيقاعها، والصمت تأثيره في الفضاء، وإعطاء كل هذا المدى الواقعي في التعبير. إن الإيقاع والصمت المتوتّر هما اللذان يُعطيان الحدث معناه. وهذا الصراع بين «هو» (الذات الأخرى) والبدوية يُعبَّر عنه بواسطة رقصهما العنيف وتصادم جسدَيهما نتيجة لخشونة الحركة وعنفها. ويتصاعد إيقاع الحركة حتّى نهاية المشهد، إلى أن يصبح كأنه انفجار، فيتحوّل «هو» إلى خرقة بالية. إن مثل هذا الإيقاع المتدرّج والمتصاعد للحركة والرقص له ضرورته في هذا الحدث. من خلال ذلك يمكن التعبير عن ذاكرة الجسد الإبداعية، وهذا يعني التعبير بالجسد من خلال تخلّيه عن عاداته اليومية بحيث يكون له وظائف إبداعية جديدة يفرضها الحدث الفنّي، أي أن تكون الحركة تعبيرية. وبما أن البدوية رمز، فإنها تمتلك القدرة على استلاب كل ملكات الإنسان. إذاً شخصية «هو» (الوجه الآخر والروح الأخرى المشاكسة للفنان) تُعتبر رمزاً للتحدّي والدخول في المغامرة لتحقيق حيوية الإنسان في صراعه مع المجهول أو الموت. لذلك فإن «هو»، وفان كوخ نفسه (الذي كان يراقب كل شيء منذ البداية) يبدوان حذرَين من هذه المغامرة، فكوخ مرتاب وخائف من هذه المرأة البدوية (الرمز) الغريبة ذات الدلالة المليئة بالغموض، فيتراجع أمامها في البدء حذراً، لكنه بعد ذلك يكتنفه عناد الإنسان في صراعه الأبديّ. يقترب جسد «هو» وجسد البدوية ليلتحما ثم يدورا ببطء في المكان. تحاول البدوية اختراق جسده بحركتها والتصاقها به إلى درجة تبدو فيها وكأنها تريد الدخول في أعماقه، وإفراغه روحياً، فرقصها معه يتحوّل إلى العنف المفاجئ. تبتعد هي عنه لتتمعّن فيه وتدرس قوّته وضعفه، لترى من أي زاوية تنقضّ عليه، ثم تلين معه وتداهن

بالرغم من أن حركتها توحي بهيمنتها عليه. وفجأة يقفزان سوية فيلتحم صدراهما إلى درجة أننا نسمع قوّة الاصطدام ولهاثَيهما. تقذفه أرضاً ومن جديد يقومان بالحركة نفسها، ليتكرّر ذلك مرات عدّة، لكن روحه دائماً ممتلئة وقوية. وبالرغم من عناده في التحدّي والصراع، إلا أنها تمتلك القوّة الداخلية السرّية الغامضة في تحويله إلى حجر وتخريب روحه، وبشكل مفاجئ تصطدم بجسده وتقذفه أرضاً من جديد)

الحجر الأول: (بهمس مخنوق) شمّي عليه بنورك.

الحجر الثاني: فنان ملمون.

الحجر الرابع: وبشر أكثر لعنة.

الحجر الثالث: حوّليه إلى حجر.

الحجر الرابع: احرقيه بمقلتّيك الجميلتّين.

(في النهاية ينهض «هو» ليبدأ صراعه من جديد، وعندما تقذفه أرضاً يسقط منهاراً فتجثم فوقه طويلاً. وحالما تتركه وتهمّ بالذهاب يتبعها متحدّياً، وفجأة تنقضّ عليه، وبعنف ترميه فيتلوّى على الأرض منهاراً وصارخاً بشكل مخيف وعنيف لا يُطاق لفترة طويلة من الزمن نشعر من خلالها بعنف آلامه وحجمها، نتيجة لشعوره باليأس وقدرتها على الانتصار عليه وإفراغ روحه. وفي النهاية تغطّي البدوية رأسه بقطعة قماش حمراء شفّافة. وتختفي في الظلام بزهو، ويبقى «هو» يئنّ ألماً)

ظلام

الطقس السادس
غابة السديم في مرآة الأسرار

(«هو» ما يزال منهاراً. المرأة الملاك تساعده، تنزع ملابسه القديمة فيبقى عارياً إلا من وزرة يمانية تغطّي وسطه الأسفل، وما يزال وجهه مغطّى بقطعة القماش الحمراء الشفّافة. في زاوية المسرح توجد مرآة كبيرة. البدوية تراقب كلّ ما يدور)

هو: (يهمس منهاراً يتمعّن دائماً بمرآة صغيرة)
أيها الإنسان الحرّ
دائماً ستحب البحر.
البحر مرآتك
فتأمّل روحك في حركة أمواجه اللامتناهية
(فان كوخ يأتي من البعيد، يحاول أن يرى وجه «هو»)
أتعرفني؟

فان كوخ: هل التقينا من قبل؟

هو: كيف ترد على سؤالي بسؤال؟!

فان كوخ: (مرتبكاً) يخيّل إليّ أننا التقينا من قبل.

هو: (ينظر إليه بزاوية عينه، وكأنه عرفه) ربما... ما الذي جاء بك إلى هنا... ماذا تريد؟

فان كوخ: جئت هرباً من العيش في غابة من المتوحّشين وفي عالم ليس حرّاً، ومن أجل هذا أريد أن أكون قادراً على تحويل ألواني إلى نور يضيء روح الإنسان.

هـو: (يضحك) هذا مستحيل. هل أنت مجنون؟ لن تستطيع ذلك لأننا نعيش في عالم مليء بالفوضى. الإنسان فيه بشر بائس، مسكين، لا يملك مرآة الخيال ليرى حقيقة الأشياء، أو ليرى الأسرار الخفيّة أو المجهول أو الرؤيا، ولا يملك حتّى الوسائل الأخرى التي يمكن أن تساعده على السباحة في البحر المقدّس بعيداً عن خطاياه، أنانيته، ومقاومة شغفه لتدمير الحياة وتشويه الجمال، أو حبّه للعنف المتوحّش، فيفضّل هو نفسه أن يعيش في غابة. إن هذه مصاعب تفوق تحمّل ذلك الذي يريد أن يحوّل هذه الغابة المتوحشة إلى جنّة.

فان كوخ: لكن من أجل هذا أعطيت نصف عقلي.

هـو: لأنك فنان حريص على استخدام عقلك بمنتهى حدوده، فتطلب المستحيل.

فان كوخ: ليس مستحيلاً.

هـو: أو نور يضيء روح الإنسان! سيكون هذا مستحيلاً إذا بقي فكرة فقط، فأنت بمساعدة خيالك وقدراتك كفنان تستطيع أن تخلق الأشياء المستحيلة، نعم أعرف هذا. أما الآخرون فالخيال هو مشكلتهم جميعاً، وعدم قدرتهم على الحلم. نعم الحلم والخيال سيحيلان ألوانك نوراً، درباً للإنقاذ. لماذا تلهث وراء هذا المستحيل؟ لماذا تُتعب نفسك؟

فان كوخ: لأني أشعر بأن الإحساس بالجمال يشعّ في روح الإنسان نوراً.

هـو: نعم ممكن، لكن الإنسان... (ساخراً) الإنسان... الإنسان (يضحك) إنه كائن عاجز، ولا يودّ الخروج من عجزه، وها هو يعيش في فراغ رهيب.

فان كوخ: نعم ومحاصراً من الموت.

هو: نعم صدقت، إنه أهم الأفكار. لكن بالرغم من هروبنا الأبدي منه إلا أن الزمن هو الفخّ الذي يصطادنا ويضعنا في شِباكه. لماذا تفكّر في الموت بهذا الضجيج... هل تخافه؟

فان كوخ: لعلّ الموت ليس أصعب ما يواجهه الفنان، لكن ماذا أفعل؟ إنه يجذبني بإغراء لا محدود، وفي كل مرّة يتسرّب نور يغشى بصري، يتحوّل إلى عاصفة نارية، تتراءى لي فيها حورية بشعرها الذهبي المرصّع بصدف البحر، وهي تنحدر بعيداً في هوّة غريبة، وقبل أن تغور في الأعماق السحيقة تلتفت نحوي وتدعوني بابتسامتها الشيطانية، فأفقد إحساسي بالحياة.

(فان كوخ يقترب من «هو» لرؤيته)

هو: (ضاحكاً) إذا كنت ترغب في رؤية وجهي، انظر في تلك المرآة. (صمت، كوخ ينظر في مرآة كبيرة وُضعت كجزء من الديكور) ماذا ترى؟

فان كوخ: أرى وجهي يُخفي ملامح غريبة.

هو: أنت ترى وجهي وليس وجهك.

فان كوخ: حقاً أنت تشبهني.

هو: وأنت أيضاً تشبهني.

فان كوخ: نعم أنا أشبهك.

هو: الوجوه متشابهة دائماً، لكنها تحمل ملامح موتها، ولأنك أكثر حساسية من الآخرين سيكون عذابك عظيماً.

فان كوخ: إذاً كانت رحلتي عبثاً؟

هو: كلا، الفنان كالقدّيس، منفيّ هو على الأرض إلا أنه يتحدّى. (يتمعّن فيه جيّداً) لكني أراك إنساناً مضرّجاً بالدم من رأسه إلى

قدمَيه. أنت متوحّش في عالم وحشيّ، وستكون روحك جمرة ملتهبة. (صمت) وبما أنك تشبهني، اسمك اسمي، وصفاتك صفاتي، وذاتك ذاتي، ونور وجهك من نور وجهي، خذ... خذ هذه الزهور لتساعدك (يناوله زهور عبّاد الشمس). وعندما تعود إلى المكان الذي أتيت، استيقظ مبكراً ليلة أفول القمر في البحر واستحمّ بأمواجه وادهن جسدك وعينَيك بهذه الزهور. حينذاك سترى الغابة البنفسجية المعلّقة بين السماء والأرض، تذكَّر عند أفول القمر، عندما يتحوّل إلى ظلام... ظلام... ظلام.

(«هو» يلحّن بعض كلماته بالرغم من أنها تكون أقرب إلى التعويذة)

«وسط مئة مرآة
كاذب مع نفسك،
ووسط مئة ذكرى
تقف بعيداً عن اليقين،
مرهقاً، سئماً، عند كل جرح
تختنق بشِباكك.

لكنّ قدمَيك قد عبرتا
حتى هذه اللحظة،
الطرق القذرة الموحلة
«نحو أرض لم تُعرف بعد».

لقد وجدتَ نفسك

ولن تستطيع الفرار.
ها أنت امتلكت السرّ
والقدرة على إخفائه حتّى عن قلبك.

(يبدأ تعويذته) داتا، دايا، داميا نا...
أيها الإنسان الحرّ
دائماً ستحبّ البحر
البحر مرآتك
فتأمّل روحك في حركة أمواجه اللامتناهية
داتا دايا داميا نا...
داتا دايا داميا نا...
(يبتعد صوته ويركع جانباً وسط الظلام)

المرأة الملاك: لقد حوّلته إلى روح خاوية وعقل مشوّش، لقد خدعته.
(المرأة الملاك تخلع ملابس فان كوخ لتطهيره. تصبّ قطرات من الماء على رأسه وتمسح جبهته وعينَيه بزهور عبّاد الشمس، ويتقاطر الماء في الإناء حتّى نسمع سقوطه)

فان كوخ: (يدور تحت نور وهّاج وكأنه يتطهّر بشلال النور وهو نصف عارٍ)
كانت رحلتي عبثاً إذاً.

المرأة الملاك: كلا... ما زالت روحك غنيّة.

فان كوخ: اللعنة لقد ذُبحت. كان شبابي مظلماً حقاً وإني لنادم، لأن الحياة كانت قاسية علي. كأن هنالك شيطاناً يطاردني. حقاً لقد سرقوا زمني، ومارسوا كل وحشيتهم ضدّي، عذّبوني، نعم عذّبوني كثيراً. وكالغريب المنبوذ كنت أتهاوى بينهم، لكني كنت بعيداً

عن أفكارهم، فلم تؤثّر عليّ كلماتهم، وغير هؤلاء لم يفهمني أحد منهم. لكني عرفت كيف أحفظ سرّي. (صمت، إلى المرأة الملاك) ألا يمكن أن تكون حياتي كلّها خطأ؟

المرأة الملاك: ممكن...

فان كوخ: إذاً ماذا سأفعل؟ ما هو مصيري الآن؟ أي مكان ألوذ به؟ إلى أين أفرّ؟ آه لو يوجد مخبأ مظلم في مكان ما من هذا العالم، أو ليتني أصبح دخاناً أسودَ يتصاعد إلى السماء، أو ليتني أتحلّل إلى لا شيء وأحلّق في الفضاء، أتلاشى عن الأنظار كغبار غير منظور. (يمسك حزمة من التخطيطات والرسومات) ماذا أفعل بهذا كلّه، إنها انفعالات غير مُجدية ومُريبة. (يرميها في الفضاء بانفعالية وتوتر) إنها جحيم روحيّ ولن تتكرّر. إنها يأس. كانت كصراخ في وادٍ مظلم، كإيقاع طبول في ليل الغابات وليل الغرباء، كالكابوس، كوحشة الغربة، كفقدان دفء العائلة وحنان الحبيبة، كعذاب يحفر في روحي. إنها الآن لا تساوي شيئاً، فهي كومة أوساخ. كان المفروض أن أحرقها، أن أتخلّص منها منذ زمن بعيد.

المرأة الملاك: اهدأ، يجب أن تعاني دون أن تشتكي، هي الحكمة الوحيدة التي يتعلّمها الإنسان من هذه الرحلة. اهدأ، اهدأ.كن قدّيساً في هذا العالم الملوّث.كن هادئاً في عالمنا المملوء بالعنف. اهدأ. (صمت) والآن ليس لديك ما يكفي من الوقت، عليك أن تفكّر في كل شيء قبل أن تذهب. وقبل أن تفي بالميثاق الذي ألزمت نفسك به مع سيّدة الأسرار عليك أن تفكّر في الحياة، وتلك الأمسيات التي كنت تأنس فيها. هل نسيتها؟ هل فكّرت فيها؟ هل فكّرت في

الندى ساعة الفجر.

فان كوخ: نعم (ويستمرّ بالتمتمة أثناء حوارها وهو مستسلم تماماً)

المرأة الملاك: والقمر عندما يكتمل في ليالي الصيف،

والطفل الذي يُدفئ حضن والده الذي كان غائباً،

ورائحة جسد الحبيبة عندما تستيقظ بعد إغفاءة مليئة بالأحلام.

والصحارى التي لم تزرها...

هل فكّرت في هذا كلّه؟

فان كوخ: نعم.

المرأة الملاك: والمدن التي كانت تستقبلك وقت المساء،

والبحار الغاضبة الموحشة. هل فكّرت في هذا أيضاً؟

فان كوخ: نعم.

المرأة الملاك: والموانئ التي لم ترها بعدُ، هناك ما زالوا ينتظرونك فيها لترسم حياتهم من جديد. هل نسيتهم؟

فان كوخ: كلا.

المرأة الملاك: وهل نسيت العشب الذي يلامس قدمَيك في همس الليالي، وبحيرات المدن الهادئة وقت الغروب، هل فكّرت في هذا كلّه؟

فان كوخ: نعم.

المرأة الملاك: (ما زالت تطهّره بالماء) إذا كنت قد فكّرت في هذا كلّه، يمكنك الذهاب لوحدك.

فان كوخ: من يمنحني بهجة الحياة وقمر الليالي؟ من يمنحني النور؟ من يُريني الغابة البنفسجية المعلّقة بين السماء والأرض؟ (صمت)

المرأة الملاك: وحتّى لا يفوتك الوقت يمكنك الذهاب الآن، اذهب، اذهب لوحدك

... نعم لوحدك، لوحدك، لوحدك.

فان كوخ: من أين الطريق؟

المرأة الملاك: طريق المرآة. (فترة) ادخل.

فان كوخ: أدخل؟

المرأة الملاك: ادخل ولا تتردّد.

(يدخل في المرآة، فنراه من خلال شفافيتها ونرى أيضاً خيالات أخرى وصوراً غريبة. يمكن عرض لوحات الفنان في الفضاء بشكل سريع، أو يمكن تحويل ما يُوصف من عالم غرائبي إلى صور يراها الجمهور. وللمخرج الحرّية في إيجاد الحلّ المناسب)

ادخل لترى نبوءتك الأخيرة. سيشتدّ النور وهجاً، ويتحوّل إلى شمس، ويأتيك القمر، لا تُصغِ إليه، حتّى يحترق ويصير فحماً، لكن الشمس ستعيد إليه نوره، عندها يمكنك أن تتطهّر في بحر المرآة. (وكأنها تراه) لا، لا تخلع مئزرك. إذ من دونه لا يمكنك الغوص. ماذا ترى؟

فان كوخ: (يأتي صوته وكأنه من أعماق بئر عميقة) ثلاث قباب من لازورد.

المرأة الملاك: ادخل القبّة الأولى، تنزّه فيها وخذ العبرة. (فترة انتظار، تشعّ بنور باهر وموسيقى صوفية كالهمس، تعرض لوحات فان كوخ بشكل سريع على خشبة المسرح وفي سقف القاعة) ماذا ترى بداخلها؟

فان كوخ: أرضاً بيضاء لامعة مثل الفضّة حجارتها من الياقوت والزمرد وترابها المسك، ونباتها من الزعفران، وأوراق أشجارها ورقة من فضّة وأخرى من ذهب، وثمارها مثل النجوم المضيئة، من

بينها ثمرة تتلألأ سيشتهيها أي إنسان إذا اقترب منها.

المرأة الملاك: احذر لا تقطفها، اخرج سريعاً، أخرج. (صمت) هل دخلت القبّة الثانية؟

فان كـوخ: ها إني أسير في وادٍ لم أرَ مثله في حياتي، فيه قبّة عظيمة من الكريستال الأخضر.

المرأة الملاك: ماذا ترى فيها؟

فان كـوخ: في وسطها خزائن مقفلة من الكريستال الشفّاف أيضاً، فمن السهولة أن أرى ما بداخلها من الدرر والزمرد وجواهر أخرى ليس لها مثيل، يهرول حول الخزائن خلق عظيم لا يرى بعضه البعض الآخر، فوق رأس كل منهم نسر أبيض، يخفق بجناحَيه. يدورون لاهثين طوال الوقت، فإذا توقّفوا، تنقرهم النسور بمناقير كالسكاكين. ما زالوا يهرولون، لا يستطيعون الدخول في الخزائن، بعضهم يتعلّق بالأبواب ويقرعها والكل يصرخ متضرّعاً ويستمرّ طرق الأبواب ويكثر الصراخ، حتى يصبح لا يطاق.

المرأة الملاك: وماذا ترى أيضاً؟

فان كـوخ: أراهم يهدأون قليلاً، لأن كوّة انفتحت وخرج، خرج منها سراج منير كأنه كوكب درّي، والبشر يمسحون وجوههم وأجسادهم بنوره، فيرى بعضهم بعضاً، مستأنسين ومبتهجين. لكن لماذا أغلقت هذه الخزائن، أين مفاتيحها؟ كأن هاجساً أوحى لي أن أنظر فوق أبوابها (صمت).

المرأة الملاك: هه ماذا ترى؟

فان كـوخ: لوحاً من نور كُتب عليه: لقد أُلقيت مفاتيح هذه الخزائن في البحر، فلو اطّلع البشر على ما بداخلها لأصابهم الجنون واقتتلوا

حتى آخر كائن منهم. (صمت)

المرأة الملاك: لماذا تصمت؟ ماذا ترى أيضاً؟ تكلّم. (صمت) ما الذي جرى لك؟ تكلّم، ماذا ترى؟

فان كوخ: أرى القبّة الثالثة، يا إلهي لؤلؤة بيضاء معلّقة بسلالم من نور.

(نسمع الموسيقى الصوفية، إنارة المناسبة تساعد الجمهور على التخيّل)

المرأة الملاك: هل ترى ما بداخل اللؤلؤة؟

فان كوخ: لا يمكن الوصول إليها، إنها بعيدة جداً، فالسلالم تصعد إلى السماء ولا يمكن رؤية نهايتها.

المرأة الملاك: غامر، تسلّق السلالم. (فترة) هل بدأت الصعود؟

فان كوخ: (فرحاً) شيء غريب ومدهش، ما إن وضعت قدمي على سلالم النور حتى شعرت بأنني أحلّق، ها إنني أحلّق حقاً، أحلّق كالنسر. (فترة، موسيقى، يصرخ) هه، هه إنني أطير...

فوق الأودية والجبال،

فوق الغابات والنجوم والبحار،

حلّقي يا روحي بعيداً

في حقول النور،

في حلمي الذي يتراءى كغابة بنفسجية.

بعيداً، بعيداً عن ذاك الجنون كلّه.

(صمت)

المرأة الملاك: استمرّ في الصعود حتّى تدخل اللؤلؤة. (فترة) تكلّم، لمَ تصمت؟

فان كوخ: (صمت)

المرأة الملاك: تكلّم.

فان كوخ: (مرتبكاً وخائفاً) لا أستطيع الوصول.

المرأة الملاك: جرِّب، استمرّ.

فان كوخ: لا أستطيع، لا أستطيع (صمت، يصرخ) هه.

المرأة الملاك: ماذا جرى؟

فان كوخ: قُذفت بعيداً عن سلالم النور، لا أرى أي شيء. فقط، غيم أسود وعاصفة ترابية. التراب يملأ عينيّ. أين أنا؟ اللعنة ماذا فعلتُ؟ لماذا تسلّقت السلالم؟ الآن أنا أهبط، بل أنا أسقط. (يصرخ طويلاً) أسقط، ماذا أفعل، ماذا أفعل الآن؟ لمَ لا تساعدينني؟ النجدة. النجدة. هه إنني أسقط على الأرض من جديد.

(صمت، يهدأ كلّ شيء، يتراءى كوخ من بعيد في الظلام)

المرأة الملاك: نور، أيها النور كن طريقنا، كن طريقنا، كن طريقنا، كن طريقنا.

(تغيب جانباً في الظلام).

فان كوخ: (أمام قرينه «هو») اللعنة كمن يستيقظ من حلمه.

(تدخل البدوية وتضرب جرساً صغيراً لتدعوه إلى مملكتها، يتبعها مسحوراً، لكن في اللحظة الأخيرة يتذكّر شبيهه وذاته الأخرى «هو». يتّجه نحوه ويمنحه زهور عبّاد الشمس ويحتضنه بهدوء. فتُصاب البدوية بالخيبة والهستيريا الصامتة، يجب أن يُعطى لهذه الخيبة الوقت الكافي ليُعبِّر عنها بالحركة الجسدية، وكذلك لسلام الفنان وهدوء ذاته. يبدأ كوخ بالصراخ الحاد الذي لم نسمعه منه من قبل ويستمرّ طويلاً حتّى النهاية)

(موسيقى صوفيّة تُفرحنا)

الختام